

وهو تأويلٌ نزعاً أنه يملك قدراً من الإقناع، لأن سياق الأحداث يوحي به، دون أن يكشف عنه بالشكل الممجوج الممل.. وهذا سرٌّ من أسرار الإجازة في بث الروى في أي أثر فني. فالشخصيات بسلوكها ومصائرهما تقول العبر، وليس بتصرّياتها أو تفوهاتهما الخطابية...

إن التخطيط الدقيق لمآل كل شخصية روائية، وصيرورتها إلى ما صارت إليه، ليسا هما فقط الملمحين الجميلين من ملامح هذه الرواية، بل إننا نشعر أنّ وراء كل فصل من فصولها يداً صناعاً تحبكه بحنكة، ومما كان مدبراً بحنكة، ومصوغاً بدقّة الحكمة الروائية التي اعتمد فيها الكاتب على أكثر من طريقة في البناء الروائي. فقد لجأ إلى السرد، وإلى الوصف، وإلى الحوار، وإلى بعض عادات النفس الداخلة في التكنيك الروائي، كالذكر، والشroud، والحلم، والتخاطر، وإلى توليف قصص قصيرة في قلب القصة الكبيرة -حسبما أشرنا سابقاً.

كما استخدم الكاتب بعض معطيات التراث الممثلة في قصص ألف ليلة وليلة، وفي الشعر القديم، وتاريخ الأدب، والحديث الشريف، والقول المأثور، مما طبع الرواية بطابع الرواية العربية الأصيلة، التي تأنف من تقليد الغرب، وتعول على بعض عناصر التراث الصالحة لتستغلها استغلالاً موقفاً. كما طبع الكاتب (ناصر) روايته بطابع الروائي المثقف والحائز عينا روائية تلتقط أدق تفاصيل المشهد الروائي وأعمقها دلالة. وفي وسع الدارس أن يسوق أكثر من دليل على ما تقدّم، فمن الأدلة على العين الروائية التي لا تغفل عن تسجيل أية حركة أو نامة يقتضيها الوصف والتصوير، هذا المشهد الروائي الذي حدث خلال حملة التفتيش عن مساعد القبطان (رستم الغطاس)، فقد راح أحد عيون (بن جدعون) ينقل تهديد رئيسه للركاب قائلاً: ".. يخفونه عني.. قسماً لأفتسن السفينة شبرا شبرا، ولأشققن كل من ساهم في إخفائه، فنلتمس أكثر من مستمع عنقه، وهو ينظر حواليه اختلاساً خشية أن تكون عينا الرجل الذي ينقل تهديد القبطان قد لاحظنا حركة ابتلاع الريق" - (الرواية ص ١٢٣). فهذا التصوير يدل على ملاحقة واستقصاء لكل ما يمكن أن يطوف به خيال الكاتب من أجزاء الصورة، كما ينطوي على تلميح مكثف معناه: أن كل ركاب السفينة كانوا يعرفون أين هو مساعد القبطان، ويخفونه عن أعين العصابة، فمثل تلك الحركة لاتصدر اختلاسا إلا عن أناس هذه حالهم، ولا يسجلها إلا واع بدقائق الأمور.

ومن الأمثلة على ثقافة الروائي الواسعة ووعيه بدقائق الأمور، حديثه عن بعض منجزات العلم، وعن قضايا التكيف الذي يعدّ أحد مستلزمات الذكاء